قاموس اللهجة العامية في السودان

تأليف عون الشريف قاسم — عرض وتعليق عبد المجيد عابدين

ليس من اليسير على قارىء أن يستوعبَ ـ فى فترة وجيزة ـ قراءة قاموس تربو صفحاته على ثمانمائة وخمسين صفحة • ولست أزعم أننى أوعبت قراءة هذا القاموس القيّم الذى ألفه صديقنا الدكتور عون الشريف • ولكن أقول عن يقين إننى كنت أحس ، كلما قطعت فى قراءته شوطا ، أن فيه من عناصر التشويق والإغراء مايدفعنى إلى المضى قدما فى قراءته ، وفيه من التنوع والخصب والحيوية مايجذب القارىء ويستهويه : ألفاظ حية يتداولها الناس ، وشواهد غنية من الأدب الشعبى ، وصور ناطقة من عادات القوم فى تعبيرهم وتفكيرهم •

وكنت أحس ـ أيضا ـ بأننى أمام جهد علمى جدير بأن يكون فى طليعة الجهود التى بذلها ويبذلها علماء السودان فى التأليف العلمى ، دقة فى العرض ، وأمانة فى النقل وحرصا على الموضوعية فى البحث ، وإسهاماً فى بناء عمل ضخم لاغنى عنه للباحثين عن السودان فى شتى مجالاته اللغوية والأدبية والاجتماعية•

والقاموس مرتب على ستة وعشرين حرفا ، وهى عدد حروف الهجاء فى اللهجات العربية السودانية • فهى تنقص عن اللغة الفصيحة حرفين : هما الثاء والذال ، فالثاء تتحول فى العامية السودانية إلى تاء أو سين ، والذال تبدل دالا أو ضادا أو زايا أو ظاء • والنسب بين المواد اللغوية التى وردت تحت كل حرف ، تتفاوت فى القاموس • فأقل هذه المواد ما ورد تحت حرف الظاء (وهو صفحتان فقط) ثم الياء (صفحتان ونصف) ثم الضاد (اثنتا عشرة صفحة) ثم الغين (ثلاث عشرة صفحة) • ثم تتكاثر المواد فى الأحرف الباقية حتى تبلغ فى بعض الحروف ـ كالباء ـ خميسين صفحة • وهذا التفاوت فى نسب المواد لايعزى إلى تفاوت فى المجهود الذى بذله المؤلف فى جمع هذه المواد ، وإنما يعزى إلى طبيعة اللهجة وواقع حصيلتها اللغوية • وقد نجد مثل

هـذا التفاوت فى نسب المواد موجـودا فى اللغة الفصيحة وسـائر لهجاتهـا الدارجة • فإذا رجعنا إلى معجم للغة الفصحى ، كالمنجد مثلا ، وجدنا أن نسبة المواد الواردة فى حرف الظاء بالقياس الى مجموع صفحات المعجم تبلغ حوالى جزء واحد من مائتى جزء $\frac{١}{٢٠٠}$ ونسبة حـرف الياء $\frac{١}{١٦٧}$ ونسبة مـواد حرف الضـاد حوالى $\frac{١}{٧٠}$ ، ونسبة مواد حرف الغين تبلـغ حوالى $\frac{١}{٤٠}$ وهذه النسب تتفق إلى حد بعيد مع نسب المواد التى وردت تحت هذه الحروف فى قاموس اللهجة العامية فى السودان • فالأمر إذن ليس راجعا إلى شىء مـن التقصير فى جمع المواد المناسبة تحت هذه الحروف ، وإنما يرجع إلى المزاج اللغوى ذاته ، وواقع محصوله •

وتزداد ثقة القارىء فى أمانة النقل وموضوعية البحث ، عندما يتصـفح مواد القاموس ليتعرف على الطـرق التى اتبعها المؤلف فى ردّ المفردات إلى أصولها أو مقابلتها بنظائرها فى الفصـحى • ولاشـك فى أن ردّ المفـردات « المحلية » إلى أصولها فى لغات أخرى ، أمر صعب عسير • لهذا سلك المؤلف المنهج العلمى فى تتبع هذه الأصول • فهو يردّ بعض المفردات إلى أصـولها رد المستيقن أو المرجح ، عندما تثبت لديه صحتها ، مثـل كلمة (أستاذ) فهى فارسـية الأصـل ، وكلمة إستيكة ، وهى المحـاة ، مـن لفظ Elastic وكلمة أسمنت مادة البناء وأصلها الكلمـة الأفرنجيـة Cement إلخ ••• وبعض المفردات يعرض فيها الآراء التى وردت فى أصلها كما فى أتبرا (ص ٥) وأرباب (ص ٩) تاركا للقارىء مجال البحث والنظر • وقد يضع بين يـدى القارىء نقولا مفيدة تعينه على معرفة أصل الكلمة دون أن يصرّح به (مثلا كلمة آبرى ص ٤) • وبعض المفردات يتوقف فى أصلها ، ويضع أمامها علامة استفهام ، دون أن يذكر فى أصلها شيئا ، تلميحا أو تصريحا • وفى كل هـذه الحالات نوقن أن المؤلف عالم ثقة لا يلقى الكلام على عواهنه ، وإنما يضـع أمام القارىء ماوصل إليه من نتائج فى أمانة ودقة •

وبعض المفردات التى وضع أمامها علامة استفهام ، هى بحـق مجهولة الأصول لدينا ، مثل : كلمة (توزه) وهى ضرب من الرقص والغناء فى الجنوب

والغرب ؟ (ص ١٠٥) وكلمة (توتيب) (شمال) وهى مكان ؟ (ص١٠٤)، وكلمة (جخنون) وهو الموضع المنزوى فى أسفل البيت وقد يستعمل كمخزن (ص ١١٥) ولفظ (تمبر) ملأ حتى فاض (الإناء أو الكوب) ؟ (ص ٩٨) فهذه المفردات وأمثالها لاسبيل للباحثين إلى الاهتداء إلى أصولها إلا إذا أتيحت لهم معرفة باللغات الحامية والزنجية التى اتصلت ، ومازالت على اتصال، بالبيئات العربية السودانية ، وتركت فيها آثارا لغوية •

وهناك مفردات وضع المؤلف أمامها علامة استفهام ، ولكن قد نجد من القرائن مايشير إلى أصولها • مثال ذلك : (بيّح البيّاح) طلع الفجر (ص٧٢) ــ (الجخس) ثور ، جاء فى الطبقات (وذبحوا لهم جخسا) (ص ١١٥) ــ (شعلوب) (غرب حمر) من أقوالهم : (ركّبتك فى فريع شعلوب) (ص ٤٠٣) •

فقولهم (بيّح البيّاح) ــ بالياء المشددة ــ كلمة نسمعها فى أواسط السودان ، وقد نطقت بالواو المشددة فى غرب السودان (بوّح البوّاح) • وتبادل الواو والياء فى صيغ الأفعال والأسماء ، ظاهرة مألوفة ، ليس فى اللهجة السوانية وحدها ، بل فى جميع اللغات السامية • وقد تفضل لهجة صيغة على صيغة ، كما فى بيّح وبوّح فكل منهما يمثل لهجة من لهجات السودان ، الأولى نسمعها فى أواسط السودان والثانية فى غربه ، وكلتاهما من أصل واحد• وقد آثرت العربية الفصيحة الصيغة الواوية ، فى باح يبوح بمعنى ظهر واشتهر، وهذه الصيغة تلتقى مع بوّح وبيّح عند أصل واحد ، والمعنى فيها جميعها هو الظهور واللمعان •

أما كلمة الجخس ، فهى اسم يطلق فى أواسط السودان ــ على الأقل ــ على الثور السمين بصورة عامة ، وتدل فى مدلولها الخاص ــ على البهيمة التى تخصى لكى تسمن ويكتنز لحمها وتعدّ للذبح • وهى أيضا عربية فصيحة ، إلا أنها وردت بالدال بدلا من الجيم ، فيقال : الدّخْس هو السمين المكتنز من الحيوان وغيره •

أما لفظ (الشعلوب) فهو من غرائب الكلام ، ولكن الشاهد الذى ذكره المؤلف فى هذا الصدد ، وهو قول شاعر من غرب حمر : (ركّبتك فى

فريع شعلوب) قد يقربنا إلى معناه وأصله • فالتركيب اصطلاح معروف لدى عامة السودانيين ، يدور عادة فى مساجلات الأحاجى القصيرة (الألغاز) ، وذلك عندما يعجز المخاطب عن حل اللغز الذى يطلب إليه حلّه ، فحينئذ يأخذ السائل فى تركيب ضرب من الكلام يصبه على المخاطب الذى عجز عن الحل ، وهو كلام ينطوى على شىء من التنديد والسخرية • ومن هذا قول الشاعر : (ركبتك فى فريع شعلوب) يريد أن يسخر بالمخاطب ، ويشهّر به بين الحاضرين ، بأن يجعله معلقا فى أحد فروع الشعاليب • والشعلوب فرع من نبات متسلق وربما كانت بين اللفظ صلة وبين مايسميه أهل السودان الأوسط (مشعليب) أو مشلعيب ، وقد أوردها المؤلف فى قاموسه بإحدى صيغتيها (فى ص ٧٤٤) وقال (مشلعيب : حبل معقود بطريقة خاصة تعلق فيه الأشياء وتحفظ ، ولعل اللفظة نوبية فهى مستعملة فى منطقة النوبة بمصر أيضا) •

وهكذا يجد القارىء فى هذا القاموس القيم مايدفعه إلى التأمل ، ويفتح أمامه مجالا للبحث • ولاجدال فى أن هذا العمل العلمى قد قدم للمكتبة السودانية ، بل للباحثين فى اللهجات وآدابها بصورة عامة ــ ذخيرة قيمة ، وأساسا لابد منه لأية دراسة جادة عن المجتمع السودانى • وإذا كان تواضع المؤلف قد أبى إلا أن يصف عمله هذا بأنه (محاولة محفوفة بالمزالق موسومة بالقصور ، وهو قصور لازم تفرضه طبيعة العمل فى تأليف المعاجم عامة ، والعامى منها خاصة) فنحن نقول إن هذه المآخذ التى يتحدث عنها ، إنما تعدّ شيئا ضئيلا يسيرا ، إذا قيست بالثمار اليانعة التى يجنيها الباحثون من تأليف هذا القاموس • وحسبه أن يكون لهم مرشدا ونبراسا . وأن يمهد لهم الطريق إلى دراسات جادة تثرى المكتبة السودانية أيما إثراء •

على أن تيسير الإفادة من هذا القاموس ، واستثمار ما فيه من معلومات، يتطلب وضع فهارس متنوعة لموضوعاته • وأرجو أن تتاح للأخ الفاضل الدكتور عون الشريف ، فرصة قريبة لعمل هذه الفهارس وإلحاقها بالقاموس ، أو إفرادها بكتيب مستقل ، لتكون مفتاحا للباحثين الذين يريدون أن يبحثوا موضوعا معينا فى اللغة أو الأدب أو الإجتماع • وسوف تكون هذه الفهارس نواة لموسوعة سودانية ، لمن شاء أن يتعهدها ويقوم بتأليفها • وفى رأيى أن

تكون الفهارس المقترحة شاملة لكل الموضوعات والنصوص والإشارات التى تضمنها القاموس • وأذكر منها على سبيل المثال :

١ ــ أسماء الأشخاص والقبائل والطوائف والجماعات وأصحاب الحرف والمهن •
٢ ــ الكنى والألقاب
٣ ــ أسماء الأمكنة
٤ ــ أسماء الحيوان
٥ ــ أسماء النبات
٦ ــ أسماء الأدوات والأطعمة والأشربة والملابس (ويميز بين كل منها برمز خاص)
٧ ــ أسماء الألعاب والممارسات •
٨ ــ شواهد الشعر
٩ ــ الأمثال

وفى ختام هذه الكلمة . ينبغى أن أنوه بالمقدمة التى أوضح فيها المؤلف طريقته فى تأليف القاموس ، والرموز التى استخدمها فى كتابة المفردات والإشارة إلى المراجع ، ونخص بالتنويه تلك الخلاصة المفيدة التى أوردها نسمات اللهجة السودانية وهى تمهيد مناسب لهذا الكتاب القيم ••